مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

أبعاد تجربة محمد الماغوط مع الشارع ومفرداته في ديوانه " حزن في ضوء القمر "

د. ريم هلال *

(تاريخ الإيداع 27 / 2 / 2019. قبل للنشر في 13 / 5 / 2019)

□ ملخّص □

يتناول هذا البحث تجربة محمد الماغوط النفسيّة والاجتماعيّة مع الشارع ، في ديوانه " حزن في ضوء القمر "، بعدما تجلّى واضحاً في شعره بأكمله ، وعلى امتداد دواوينه الثلاثة ؛ إذ كان الشاعر يخرج إليه في كل مرحلة من مراحل حياته ، سواء أكان شارعاً فسيحاً أم زقاقاً ضيّقاً ، تعبيراً عن توقه إلى التحرّر والانطلاق عبْر الآفاق ، ومحاولةً منه الفرار من المعاناة التي أخذتْ تتجدَّد عليه ، بدءاً من طفولته ، وما سادها من شظف العيش ، مروراً بكلّ مدينة من المدن التي اقتضتْ ظروفه الفرديّة تنقّله عبْرها ، وأضافتْ إلى معاناته الأولى من الفقر حدّة إحساسه بالغربة والحنين إلى الوطن ، ذلك حتى في شوارعها التي كان يلوذ بها ، نظراً لما كان يلقى فيها من الوحدة وتنكّر العابرين .

الكلمات المفتاحيّة : المعاناة ، التشرّد ، الحلم .

* أستاذ مساعد – قسم اللغة العربيّة – كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة – جامعة تشرين – اللاذقيّة – سوريّة.
بريد إلكتروني dr.reemhilal@gmail.com

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (41) العدد (3)2019
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (41) No. (3) 2019

Dimensions of MOHAMMAD AL MAGHOUT's Experiment With the Street and its Vocabulary in His Divan (Sadness in the Moonlight)

Dr. Rim Hilal*

(Received 27 / 2 / 2019. Accepted 13 / 5 / 2019)

□ ABSTRACT □

This Research handles the relation of Al Maghout with the Street in his Divan "Sadness in the Moonlgiht" after it has been quite obvious in his whole poetry and through his three Divans. The Poet used to go out to the street in each stage, whether it has been a wide street or a narrow lane, as an expression to his eagerness to liberation and proceeding through the horizon, and as an attempt by him to escape from sufferance which has been recurrent in his life, starting from his childhood, and the hardship of living that overwhelmed it, passing through each of the cities that his living circumstances obliged him to pass through. What added to his suffering from poverty is his sharp feeling of expatriation and homesickness, even in those streets to which he used to resort, due to the loneliness he used to find there and the indifference of the passersby.

Keywords: Suffering - Homelessness - Dream

***Associate Professor, Department of Arabic Language, Faculty of Arts & Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدّمة:

إذا ما شَكّلَ المكان عنصراً رئيساً أسهم في تكوين الشعر بعامّة ، على اختلاف عصوره وبيئاته واتّجاهاته ؛ فقد امتلكَ الشارع الذي يتفرّع من هذا المكان في شعر الماغوط حضوره المتميّز الذي تفوّق على العناصر المكانيّة الأخرى، ذلك بكلّ ما يحمل من مفردات رئيسة وفرعيّة دالّة عليه . علماً أن هذا الحضور ، لم يتحقَّق لغاية في ذاتها ، إنما لأجل تعبير الشاعر عن أعماقه الداخليّة، وما أخذ يتراكم فيها على امتداد حياته من معاناة متنوّعة، تمثَّلتْ – بخاصّةٍ– في الفقر بدءاً من طفولته ، والاغتراب عن بلدته ، ثم عن الوطن ، وتعرّضه داخل هذا الوطن للسجن لمرّات عديدة ، وما استتبع هذا كلّه من التمرّد في كلّ مرحلة تجدّدتْ فيها هذه المعاناة ، والانطلاق من مسكنه الذي ضاق عليه نحو الشارع ، ناشداً عبْر آفاقه ، الفسيحة منها أو الزقاقيّة الضيّقة ، قدراً من التحرّر والخلاص . هذا وإن كان ينبغي التساؤل هنا ما إذا كان الفضاء المكانيّ المذكور قد حقَّق للشاعر دائماً ما ابتغاه ؟ أم أضاف إليه ، ولا سيما في أماكن غربته ، معاناة أخرى جديدة ؟

أهميّة البحث وأهدافه :

لعل أهميّةَ هذا البحث تكمن في كونه قد ألقى ضوءاً على جانبٍ من شعر محمد الماغوط ، لم يلقَ الاهتمام الكافي من الباحثين الآخرين " الشارع " ، مع تجلّيه واضحاً في ديوانه ؛ إذ قَلَّ أن تناولوه بصورة مستقلّة ، بل جزئيّة عارضة ، ضمن سياق تناولهم جانباً آخر من هذا الشعر . وبذلك ربما تكون قد تَمّتْ مقاربة الهدف الذي يُفتَرَض أن يرتبط بكلّ بحث ؛ وهو تقديم الجديد الذي لم يتَّضح تداوله عبْر ما كثر من الأبحاث .

منهجيّة البحث :

وفيما يتعلّق بالمنهجيّة التي تمّ اتباعها في هذا البحث ؛ فقد تحدَّدتْ في تقصّي البنية الكليّة لعلاقة الماغوط بالشارع ، عبْر ديوانه المذكور ، ثم في تحليلها إلى عناصرها الآخذة في التدرّج عبْر ما تعدَّد من مراحل حياته ، ثم في التحليل الدلاليّ للنصوص التي مثّل كلّ منها واحداً من هذه العناصر .

النتائج والمناقشة :

لعل قراءةً متأنّيةً لديوان محمد الماغوط " حزنٌ في ضوء القمر " بخاصّةٍ ، أو لدواوينه الثلاثة بعامّةٍ ؛ يمكن أن تُبرِز بوضوح الحضور اللافت للشارع في أشعاره ، عنصراً مكانيّاً أسهمَ في صياغتها ، بنسبةٍ زاحمت العناصر المكانيّة الأخرى ، ذلك بخصوص التعبير عن كلّ مرحلة من مراحل تجربته الحياتيّة ، بدءاً من طفولته التي قضاها في بلدته ، مروراً بكلّ مدينة من المدن التي حملَته الظروف على التنقّل عبْرها ، والتي شكّلَ الشارع واحداً من أبرز معالمها .

وقد أوردَ الماغوط هذا الشارع ضمن الديوان المشار إليه في لفظه الصريح المباشر أحياناً : " أنا إنسانُ تبغٍ وشوارع وأسمال " [1] ، وفي ألفاظ متّصلة به أحياناً ، سواء ما شكّلَ منها فروعاً له ، من أزقّة وحارات وطرقات ودروب ، مع هذا التفاوت الملحوظ في أسمائها ومظاهرها ، ضيقها واتساعها ، أو ما شكّلَ أجزاءً غير منفصلة عنه ، متأصّلة في تركيبه ، من أرصفة وساحات ومواقف وجسور وشارات وأسواق ، يُضاف إلى ذلك عدم تغافل الشاعر عن أولئك الذين يرمقهم سائرين فيه " المارّة " ، وإنْ لم تربطه بهم أيّة صلة .

وربما شكّلَ الشارع الممتدُّ عبْر الديوان ظلاًّ موازياً لطريق معاناة الشاعر ، التي امتدّت – هي الأخرى – عبْر خطوات حياته بأكملها ، بما تنوَّع من مظاهرها ، والظروف التي أسهمتْ في تكوينها ، وما راكمتْ لديه من ضغوط نفسيّة قاسية ، حملته على التمرّد ، على التفجّر ، على محاولة التحرّر ؛ أو بكلمة أخرى : على الانطلاق من مسكنه المتواضع دائماً كما ورد في وصف " سنيّة صالح " لنموذج له [2] إلى الخارج ، إلى اللامحاصَر بالجدران والسقوف ، بغية التشرّد عبْر أرجائه اللامتناهية ، والبحث عن ذاته التي أحسَّ بافتقادها ، أو عمّا يمكن أن يرمّم جراحها : " فأنا متشرّد وجريح " [3] .

وإلى جانب دور المعاناة في فرار الماغوط إلى الشارع ؛ يمكن أن نُدرِج دور سماته الشخصيّة التي يُفترَض أن تكون قد تشكّلتْ لديه بفعل هذه المعاناة ، والتي استطاع " لؤي آدم " أن يستخلصها مُجمِلاً إيّاها في الخجل والخوف والقلق والسوداويّة والتقوقع [4] ، فلعله يستمدّ من خلال هذا الشارع ، هذا المكان المنطلق الحُرّ ما يناقضها من جرأة واطمئنان وسكينة وابتهاج وانفتاح .

كما لا ينبغي التغافل عن دور الدافع الأكثر وضوحاً لنزول الماغوط الشارع ، دور بوهيميّته ، بدائيّته التي ربما شكّلتْ حصيلةً لظروفه وتجاربه المتوالية عليه منذ بداياته ، والتي أشارت إليها " سنيّة صالح " المُتماسّة معه دائماً في معرض تفسيرها لتحريره الشعر [5] ، ذلك لمِا افترضتْ هذه السمة لديه من إيثاره تلك الحياة الحرّة المتشرّدة على حياة العمران والاستقرار .

إن هذا المكان المديد الذي هو الشارع في ديوان محمد الماغوط ، ليس سوى واحد من مظاهر المسافات الطويلة التي تَوضَّحَ للؤي آدم حضورها كذلك في أشعاره ، معبّرةً عمّا امتدّ في نفسيّته من آفاق وأخيلة وأحلام وطموحات [6] .

وخلاصة القول أنَّ الشارع لدى محمد الماغوط ، ربما جسَّدَ أفقاً لرؤياه ، رؤياه التي تبيَّنَها راجي شاهين ، وهي تَحكُم أشعاره بعامّةٍ ، وتمنحها طابعها المتميّز ، أو تَحكُم منها – بخاصَّةٍ – هذا الشطر الذي نحن بصدده ، الشطر الشارعيّ ، ذلك حين تأسَّسَتْ – كما بدا لشاهين – على توق الشاعر إلى الخلاص ، والتحرُّرِ الأمثل من قيود الواقع المرعب ، الذي وعاه وأدرك تحولاته [7] ، علماً أن شاهين لم يتأخَّر عن إيجاده في تشرُّدِ الماغوط ، الذي شكَّلَ تمرُّداً على المجتمع وسبيلاً للهرب والخلاص ، واحداً من عناصر هذه الرؤيا ، التي تقصَّاها على امتداد شعره [8].

1–تجربة محمد الماغوط مع شوارع الطفولة :

بديهيٌّ أن تبدأ أيّة تجربةٍ إنسانيّةٍ ، من مرحلة الطفولة ، نظراً لِما لهذه الأخيرة بحسب ما أوردَ علماء النفس ، من دورٍ في تكوين الفرد نفسيّاً واجتماعيّاً ، وها هي ذي تجربة محمد الماغوط ضمن السياق المذكور ، تجربته مع الشارع ، قد بدأت من طفولته . ففي نصّ من قصيدته " تبغٌ وشوارع " ، عَبَّرَ الشاعر مكانيّاً أو شارعيّاً عن طفولته الشقيّة التي عاشها في بلدته ، من خلال إيحائه خروجه من بيته ، بيت الفقر وشظف العيش ، وتصريحه بموضعة نفسه أمام الدكاكين ؛ هذه التي لابد أن تنفتح أبوابها على شارع ، أو على واحد مما يتّصل به ، من زقاق أو حارة أو طريق أو سوق ، وإنْ لم يتلفّظ به الشاعر هنا بوضوح ، مكتفياً بهذه العبارة التي شفَّتْ عنه " أمام الدكاكين " . إنه كان يحضر أمام الدكاكين ، لا من أجل أن يبتاع شيئاً منها ، إنما من أجل أن يتحوّل هو إلى بائع ، بائع مهرّج ، بما تحمل صفة مهرّج ضمن هذا السياق من دلالة على صدورها عن أعماقه المعتمة بدلاً من المبتهجة " نقيضٌ يصدر عن النقيض " ، ومن دلالة على إثارتها نكران الآخرين بدلاً من الضحك والفرح " نقيضٌ يثير النقيض " . وقد تَمثّلَ التهريج هذا في بيعه البطالة ؛ رمز الحياة الفارغة اللامجدية التي آل إليها في تلك المرحلة ، بل في بيعه التثاؤب الذي لا بد أن يؤول إليه بفعل تلك البطالة ، بكلّ ما يتجلّى فيه من معاني الخمول والضجر واليأس والنعاس . ولعل الشاعر بذلك ، أراد أن

يوصِل إلى مقارنة خفيّة بينه هو الذي يبيع في الفناءات المترامية أمام الدكاكين ، وبين الدكاكين التي تبيع ضمن مساحات منسّقة آمنة محدّدة بالجدران والسقوف والأبواب، بينه هو الذي يبيع ما لا يحمل قيمة تُذكَر ، وبين الدكاكين التي تبيع سلعها المألوفة المنطوية على قيمتها الشرائيّة مهما قلَّ شأنها :

طفولتي يا ليلى .. ألا تذكرينها

كنت مهرجاً ..

أبيع البطالة والتثاؤبَ أمام الدكاكين [9]

ومن أمام الدكاكين ، ينطلق الشاعر في طريقه ، مصرّحاً بلفظة " الطريق " ، التي لا تعني ضمن هذا السياق درب الكدح والمثابرة في الحياة ، إنما متابعة خطّ الفراغ غير المُجدي الذي بدأه من هناك ، متمثّلاً هنا في لعب الدّحل ، وكذلك خطّ التقشّف الذي بدأه من حياته الأسريّة ، متمثّلاً هنا في أكل الخبز ؛ هذا الطعام الذي حين يكون بمفرده غير مصحوبٍ بمادّة غذائيّة أخرى ، يبدو بسيطاً خاصّاً بالفقراء ، ومن الممكن أن يتمّ تناوله بعفويّة ، في الطريق ، دون حاجة إلى تنسيق مائدة لأجله في البيوت :

ألعبُ الدّحل

وآكل الخبز في الطريق [10]

وينتهي الشاعر في هذا النصّ الخاصّ بطفولته إلى السّوق ، كي يتلقّى ثمن ما باع من تسكّع أمام الدكاكين ، وعبْر الطرقات ، فإذا هذا الثمن يتأتّى من الأب الذي بات بفعل سلوك ابنه اللامسؤول يكنُّ له البغض ، أو الحبّ القليل ، ولا يجد غضاضة في شتمه وضربه في ذلك المكان " السّوق " ، أمام الملأ ، كما لو أنه جارية ، جارية لا عبد ، دلالةً من الابن على حدّة إحساسه بالذلّ والعبوديّة ، تحت سطوة الظروف :

وكان أبي ، لا يحبني كثيراً ، يضربني على قفاي كالجارية

ويشتمني في السوق [11]

لكن تجدر الإشارة إلى أنه إذا ما شكّلَ ضربُ الأب ابنَه عقاباً على تمرّده ؛ فلا بد من الاتفاق مع " لؤي آدم " حول دور السلطة الأبويّة التي امتدّتْ إلى حياة الشاعر من المجتمعات البشريّة في خلقها واحداً من عوامل هذا التمرّد [12].

2-تجربة محمد الماغوط مع شوارع الغربة في دمشق :

وحين كان من البديهي ، عدم ثبات الشاعر أو أيّ إنسان عند مرحلةٍ معيّنة ، بفعل ما تفترضُ حركة الحياة المتجدِّدة ؛ كان لا بد للماغوط من تجاوز طفولته تلك ، وانتقاله إلى مرحلةٍ أخرى أكثر اتّساعاً وتعقيداً ، ضمن سياق تجربته الخاصّة المذكورة . فبناءً على ما ذهبت إليه " قادة عقاق " من عجز الريف بُعَيد الحرب العالميّة الثانية عن تلبية متطلّبات الفرد ، بفعل الظروف الجديدة المتنوّعة التي طرأتْ على العالم العربيّ حين ذاك ، وما أدّى إليه هذا من انهيار الريف مقابل نهوض المدينة بديلةً له [13] ؛ فهذا محمد الماغوط يعبُر طريقه من قريته إلى دمشق ، كي يتابع دراسته ، وينخرط في الحياة السياسيّة ، أو يكوّن ذاته ضمن مرحلته الجديدة . لكن إحساسه بالشقاء هناك أخذ يزداد كمّاً وشدَّةً طيلةَ إقامته بفعل معاناته الوحدة والغربة ، عَبْر تلك المدينة الكبيرة ، الكبيرة في أصلها من جهة ، وبالقياس إلى بلدته من جهة ، وبخاصّةٍ لدى تعرّضه للسجن السياسيّ ، وقلقه الشديد بعد خروجه من أن يُعاد ثانيةً إلى زنزانته ، ولا سيما عقب كلّ واحد من الانقلابات السياسيّة التي توالتْ على سوريّة حينذاك كما جاء عن زوجته " سنيّة صالح " [14] .

أ–تعبير الماغوط عن وحدته في شوارع دمشق :

أما بخصوص شعور الماغوط الأوَّل الذي انتابَه تلقائيّاً ، في تجربته الأولى مع الغربة ، شعوره بالوحدة في دمشق ؛ فقد عبَّرَ عنه من خلال شوارعها ، في هذا النصّ من قصيدته " جناح الكآبة " :

مخذولٌ أنا لا أهل ولا حبيبة

أتسكعُ كالضباب المتلاشي

كمدينةٍ تحترقُ في الليل [15]

إذ بدأه بالإشارة إلى تعرّضه للخذلان ، مؤكَّداً من الآخرين الكثيرين هناك ، أو للتجاهل والإهمال ، بعيداً عن الأهل الذين كانوا في كنفه ، ضمن بلدته ، مهما نأى عنهم في الأزقّة والدروب ، وبعيداً عن الحبيبة التي يمكن لدى إخلاصها للرجل أن تشغل مكان الأهل ، مكان الأمّ ، بما قد تُغدِق عليه من حبّ ودفء . ثم ما لبثَ أن تقدَّمَ في النصّ خطوة ، لكي يشير إلى ما آل إليه إحساسه بمثل هذا اليتم من لجوئه إلى الشارع ، واللوذ به ، وإنْ لم يتلفّظ بكلمة " شارع " هنا صراحةً ، مكتفياً بالقرائن التي تدلّ عليه . فقد أشار إلى ما أخذ يقوم به من التسكّع الذي لا يحدث عادةً إلا في مثل هذا المكان الحُرّ " الشارع " . مع أن تسكّعه في هذه المرحلة ، جاء للدلالة على ما آلتْ إليه وحدته في شوارع دمشق ، مما يعنيه هذا الفعل في الأصل من السير العشوائيّ الضائع الحائر دون هدف ، على النقيض من تسكّع طفولته الذي أورده في الديوان ، مُحمّلاً إيّاه دلالته الإيجابيّة على حريّة الحركة واللامبالاة .

ومن القرائن على هذا الشارع أيضاً ، أنه لدى تسكّعه ؛ شَبّه نفسه بالضباب الذي لا يوجد ما بين حين وحين إلا في الطرق ، بل الذي شأنه شأن الشاعر ، يتجوّل عَبْرها في ضياعه وحيرته غير مهتدي الخطى . وحين نعتَ هذا الضباب بالتلاشي ، الضباب الذي يشبهه ؛ كان هذا من أجل الدلالة على أنه مثلما يظهر هذا العنصر في دروبه بهيئته المرئيّة دون أن يكون له أيّ وزن ؛ كذلك هي حال الشاعر الذي بفعل وحدته في الشوارع ، يظهر بهيئته أمام المارّة ، دون أن تكون له أيّة مكانة في منظورهم .

وقرينةٌ أخرى تتّصل بالشارع ، تتلو سابقتيها في هذا النصّ ، تتمثّل في أن الشاعر لدى تسكّعه ؛ شَبّهَ نفسه أيضاً بالمدينة ؛ هذه المساحة التي تتجلّى بأصناف شوارعها مثلما تتجلّى بمبانيها . على أن شَبَه الشاعر بها لا يتحدّد في كونها مدينة فقط ، إنما مدينة تحترق في الليل ، دلالةً على أنه إذا كان غير واضح الوزن والمكانة أمام من يلمحونه وحيداً في الشارع ، كما الضباب ؛ فلا بد أن تتّضح لهم آلامه وحرائقه وسط ظلمات حياته ، كما وضوح المدينة التي تحترق في الليل .

وبتشبيه الماغوط نفسَه بالضباب من جهةٍ ، وبالمدينة من جهةٍ ؛ يتجلّى انتقاله من العدم الساكن القاتم إلى العدم المتوهِّج المشتعل ، أو يتجلّى واضحاً ما ذهب إليه راجي شاهين بشأن تجربته الشعريّة بعامّةٍ ؛ إنه هنا التشيّؤ ، الذي أصبح مراداً للشاعر ، ومآلاً يلوذ به ، بفعل ما فرضت على نفسه أحاسيس الاغتراب من وجودٍ مأزوم [16] .

ب–تعبير الماغوط عن نبذِه في شوارع دمشق :

بل إن من خلال نصّ من قصيدة " الشتاء الضائع " ؛ تبيّنَ أن أمر الشاعر في شوارع دمشق لم يقتصر على وحدته ضمنها ، وتلقّي الخذلان من العابرين ؛ إنما اقتضتْ غربته ما هو أكثر قسوةً ، بغية اكتمال أبعادها لديه . إنه هنا النبذ، إنه طرْدهم له من واحدة تلوَ الأخرى من الحارات التي كان قد رضيَ بها ملاذاً دون البيوت الدافئة ، ولا سيما حين عثَر فيها ربما – هي جمع المؤنّث – " الحارات " على حنان الأنثى المفقود . مع أن فعلهم هذا تجاهه ، ربما كان تنكّراً منهم لشخصه بأكمله " أنا " ، بكلّ ما تتضمّنُ من شَبَهه بالطائر الجارح ، وتعطّله الدائم عن العمل، وإسرافه في

التدخين ، واشتهائه أقرب النساء إليه . كما كان ذلك تنكّراً لأعماقه الداخليّة الفطريّة ، وما تُنتِج من أشعاره النابية عن تحضّرهم ، ولهيئته الخارجيّة ، وما تُظهِر من قمصانه غير الملائمة بألوانها الفاقعة لأذواقهم :

فأنا جارحٌ يا ليلى
منذ بدءِ الخليقةِ وأنا عاطلٌ عن العمل
أدخِّنُ كثيراً
وأشتهي أقربَ النساء إليّ
ولكم طردوني من حاراتٍ كثيرة
أنا وأشعاري وقمصاني الفاقعة اللون (17)

ومن هذا النصّ الذي تمّ إيراده ؛ يمكن أن نتبيّن تأكيد فعل الطرد الذي تعرّضَ له الشاعر ، من خلال إلحاقه ب"كم " في عبارة " ولَكَم طردوني " لام الابتداء المؤكِّدة ، كما يمكن أن نتبيّن تكرار وقوع هذا الفعل وكثرته من خلال كم الخبريّة هذه ، وكثرة الذين قاموا به من خلال إضافة واو الجماعة إليه " طردوني " ، وكثرة الحارات التي طُرِدَ منها من خلال إيراده هذه اللفظة في صيغة الجمع ، مُتْبعاً إيّاها بصفةِ " كثيرة " ، وتعدُّد جوانب الشاعر المطرودة من خلال عبارته التفصيليّة " أنا وأشعاري وقمصاني " ، مع ما انطوتْ عليه لفظة " أنا " – كما سبق أن تبيّن – من جوانب سلوكه الفوضويّ في حياته .

ج–تعاطف الماغوط مع أقرانه في شوارع دمشق :

وانطلاقاً من الوحدة والنبذ اللذين عاشهما الشاعر في شوارع دمشق ، بفعل رفض المتنكّرين له ؛ يبدو أنه من جانب آخر ، أخذ يتعاطف مع الآخرين أمثاله ، ضياعاً وتشرّداً ، عَبْر الفضاء المكانيّ ذاته ، ويتآلف معهم ويتفاعل، تلهّفاً إلى تشكيله جماعة من شأنها أن تبدِّد من إحساسه بالغربة الموحشة ، وتلبّي له غريزة الاجتماع ، بعد طول افتقادها خلال المرحلة السابقة . ولعل في هذا ما يحمل على استحضار الشعراء الصعاليك في الجاهليّة ؛ هؤلاء الذين إن انفصل كلّ منهم عن قبيلته ، بفعل سوء سيرتها معه ؛ فإنهم ما لبثوا أن انتهوا إلى تشكيل جماعةٍ خاصّةٍ بهم ، متّخذين طريق التشرُّد عبْر الصحراء التي جاءت هنا متوازية بمن فيها مع شوارع الماغوط ورفاقه .

وقد برز توجّه الشاعر هذا في نصّ من قصيدة " حزن في ضوء القمر " ؛ إذ بدأه أسلوبيّاً بضمير المتكلّم الجماعة " نحن " ، مُتْبعاً إيّاه بالنون المضارعة في فعل " نَدقُّ " ، ثم بتكرار " نا " الدالّة على الجماعة في أربعةٍ من الألفاظ : " ثيابنا – أطفالنا – وجوهنا – نواحنا " :

عشرون عاماً ونحن ندقّ أبوابكِ الصلدة
والمطر يتساقط على ثيابنا وأطفالنا
ووجوهِنا المختنقةِ بالسعال الجارح
. . .
ورياحُ البراري الموحشة
تنقلُ نواحنا
إلى الأزقة وباعة الخبزِ والجواسيس (18)

إذن إنهم منذ عشرين عاماً ، يدقّون أبواب دمشق الصلدة ، مع ما تدلّ عليه " عشرون عاماً " هذه من امتداد معاناة الشاعر وإيّاهم عَبْر هذه السنوات المذكورة ، أو إلى ما هو أكثر في الأصل ، رامزاً له من خلال العدد عشرين ، أو إلى ما هو أقلّ ، نظراً لما يشعر به المتألّم عادةً من ثقل الزمان الذي يمرّ عليه . أما الأبواب الصلدة التي يدقّونها دون أن تُفتَح لهم ؛ فقد جاءت للدلالة على ذلك الحاجز العتيد الذي يقف حائلاً بينهم هم الذين يَحيون في شوارع اللاأمان ، وبين ما يطمئنّ خلفه من البيوت التي يحلمون بولوجها ، والركون إليها ، وإنْ ضمن أدنى حدّ من ظروف الحياة البشريّة. ثم جاءت لفظة المطر في السطر التالي ؛ المطر الذي يتساقط عليهم ، بغية المزيد من توثيق وجودهم في شوارع اللاأمان تلك . إنه هنا ليس مطرَ الخصب ، بل مطر الحياة المقفرة التي حلّتْ عليهم من الأرض والسماء ، إنه ليس مطرَ الخير ، بل مطر السوء الذي خصّه الله بهم ، مثلما خصّه قبلاً بآل لوط [19] ، مع تباين ما بين القومين تباين الآثمين والبريئين . إن هذا المطر يتساقط على الشاعر وأقرانه دون سواهم ، لحكمة عُلويّة لا يدركها البشر ، تتمثّل في الآية القرآنيّة " وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ " [20] ، فيصيب ما يمكن أن يصيب من ثيابهم التي تقي أجسادهم ، وأطفالهم الذين لا بد أن يوجَدوا في كنفهم ، وإنْ في مثل هذا المكان ، ووجوههم ليزداد اختناقهم بالسعال الجارح الذي بدأ بفعل تماسّهم المباشر ، تماسّ وجوههم العارية مع ظروف الجوّ الخارجيّ . وحين ذكر الشاعر في النصّ رياح البراري الموحشة ؛ كان هذا من أجل أن يوحي أنها مثلما بشدّتها وهياجها استمطرتْ السماء بمطر السوء ذاك ، بغية شمولها به ما يتعلّق بأولئك المشرّدين : ثيابهم وأطفالهم ووجوههم ؛ كذلك استمطرتْ داخلهم بذلك النواح ، بذلك الحداد الصارخ على حاضرهم ، بغية بثّها إيّاه حتى عَبْر أكثر الأرجاء ضيقاً وتوغّلاً " الأزقّة " ، وأسماع أكثر من ينحشرون فيها بساطةً " باعة الخبز " ، أو شرّاً وأذىً "باعة الضمير ، الجواسيس " .

ومن خلال ما تَقَدَّمَ ذكرُه ، بشأنِ تشرّد الماغوط في تلك الشوارع ؛ يمكن أن نلتقي والاستنتاج الذي انتهى إليه إحسان عبّاس حيال قصيدة البيّاتي " مسافرٌ بلا حقائب " ، في ديوانه " أباريق مُهَشَّمَة " ؛ إذ تَبَيَّنَ له أن شاعرَها ، الذي فقدَ وجهتَه في السير ، ولا يدري إلى أين يهتدي ؛ باتَ يَمُتّ بِصِلَةٍ إلى الوجوديّة ، إلى الغربة ، كما لدى غريب ألبير كامو، وبات يحسّ بالانفصال واللامكان واللاتاريخيّة ، ويركُنُ إلى التثاؤب والضجر والحزن ، وما حملَه عليه هذا كلُّه ، من محاولة بحثه في أثناء سيرِه العشوائيّ ، عن هويَّته التي افتقدَها ، فلعله يتمكَّنُ من استعادتِها [21] .

3-توق الماغوط إلى شوارع الطفولة :

وبفعل معاناة الماغوط التي تعدَّدتْ أبعادها في شوارع دمشق ؛ كان مُحتَّماً أن يتفاقم إحساسه بالحنين إلى طفولته، أيّاً كانت ظروفها ، أو كما ورد في نصّ من قصيدة " المسافر" إلى تلك الأزقّة التي كان يرتع فيها ، موحياً البون الشاسع ما بينها هي التي كان ينعم في أحضانها بالسكينة ، ضمن بلدته ، وبجوار بيته ، كما لو أنها الأمّ ، وبين تلك الشوارع الغريبة التي راح يبحث عبْر أرجائها المتبعثرة عن ذاته المطمئنّة دون جدوى . إنه حيال تلك الأزقّة، بات يشعر بالأسف على ما تعدّدَ من الممارسات التي كان يسلكها فيها ، والتي إنْ بدت له بسيطةً حينذاك ؛ فقد غدت ضمن زمانه ومكانه الجديدين ذات أهمية وجماليّة كبيرتين ، كما اللوحة الفنيّة التي يتبصّر بها مبدعها بصورة أوضح حين ينأى عنها لمسافةٍ بعد إنجازها . إنه كما ذَكر في مقالته " لا تأخذ حلوى من غريب " ، مهما قدّمتْ له الحضارة من منجزات ، قد شهدها في مدينة دمشق ؛ لا بد أن ينتابه الحنين إلى الماضي البعيد ، مهما كان يسوده من خشونة وفراغ وشظف [22] . وبذلك فإننا نتّفق مع " حبيب مونسي " ، حين وجد أن الطلل الذي كان يقف به الشاعر متأسّفاً ، لم يَعُد يقتصر على الشعر القديم فحسب ، بل إنه امتدّ إلى الشعر الحديث ، وسيستمرّ عبْر الآباد ، ما دام سيظلّ يشكّل لدى

الشاعر هاجساً يتوهّج في داخله ، كلما تلهّفَ إلى الماضي ، إلى ذلك المكان المعزول ، الزمان المعزول ، بعيداً عن صخب الحاضر وضوضائه ؛ أو بصورة أكثر تحديداً ، عن صخب المدينة وضوضائها [23] :

لم أعد أجلس القرفصاء في الأزقة

حيث التسكع

والغرام اليائس أمام العتبات [24]

إنه بات يأسف على جلسة القرفصاء في تلك الأزقّة ؛ هذه التي يتّخذها الصغار عادةً في بيوتهم ، أو فيما حولها، بكلّ عفويّة وراحة ، دون أن يجدوا فيها أيّ حرج ، أو أيّ حاجة إلى استبدالهم بها جلسةً أخرى ، وإنْ على مقعد وثير . إنه بات يأسف على تسكّعه الذي سبق أن تبيّن الفارق بينه هناك في أزقّته ، وما يحمل من دلالة على فرحه بالحريّة التي كان يحوزها ، وبإمكان صرف وقته كيفما يشاء ، وتسكّعه في غربته ، وما يحمل من دلالة على ضياعه وحيرته أمام الحياة التي أخذتْ تتعقّد ، وتكشف له عن وجهها الآخر . بل إنه بات يأسف ، حتى على غرامه الذي كان يبدو يائساً أمام عتبات الحبيبة ، والذي ما لبث أن تَحوّل فيما بعد إلى مجرّد ذكريات بريئة ، أو مرحة أمام جديّة الظروف الجديدة .

وحين تَعذّرت على الشاعر طريق عودته ، من غربته إلى طفولته ؛ ما لبث أن توجّه إلى أبيه الذي يخاطبه عبْر القصيدة ، كي يرسل إليه عبْر الطريق المعاكسة الميسَّرة ما يمكن إرساله من عناصر تلك الطفولة ، فلعلها تشكّل لديه على صغرها رموزاً لذلك العالم القديم الذي يتلهّف إليه :

فأرسل لي قرميدةً حمراء من سطوحنا

وخصلةَ شعرٍ من أمي

التي تطبخ لك الحساء في ضوء القمر [25]

إنه أراد من أبيه أن يرسل إليه عَبْر الطريق المذكورة قرميدةً من سطوحهم ، لعله يستمدّ منها قدراً من الحنوّ والحماية والدفء ، مستحضراً صورة ذلك القرميد الذي لايزال ماثلاً في خياله ، وهو يحنو على بيت طفولته ويحميه ويدفّئه . وحين نعتَ القرميدة المبتغاة بالحمراء ؛ فمن أجل أن يستمدّ منها كذلك قدراً من الحيويّة والفرح اللذين كانا يملآنه ، وهو ينجذب إلى ذلك اللون ، لون القرميد الأحمر مُجمّلاً بيته ، مثلما ينجذب إليه سواه من الصغار . ومن جهة أخرى ، إنه أراد هذه القرميدة الحمراء ؛ كي يجعل منها دمية جميلة ، يلهو بها في شوارع غربته ، مستعيداً أوقات لهوه في تلك الأزقّة بما يماثلها من الأحجار الملوّنة ، عوضاً عن الدمى الحقيقيّة الثمينة التي كان قد حُرِم منها .

ومثلما أراد أن تُرسَل إليه قطعة من القرميد الذي كان يحنو على بيته ذاك ، أراد أن تُرفَق معها عَبْر الطريق ذاتها خصلةً من شَعر أمّه الذي ربما كان يتلقّاه منها ، وهي تحنو عليه في طفولته . أما فيما يتّصل بالحساء الذي كانت أمه تطبخه لأبيه ؛ فقد جاء للدلالة على توقه إلى استحضار ذلك الشراب الساخن من بين يديها ، يدَي أمّه البعيدة ، واستمداده ما يهفو إليه من الدفء في صقيع غربته . وحين استحضر مع الحساء ضوء القمر الذي كان يتمّ في كنفه ذلك الطبخ ؛ فلكي يستمدّ منه – هو الآخر – الأمان والسكينة اللذين بات يفقدهما بعيداً عن مساءات بلدته، أو لكي يكون كالشعراء المهجريين الذين أشارت " قادة عقاق " إلى احتمائهم من مهاجرهم بالليل ، الليل الذي تتلاشى فيه الملامح والفوارق ، وتتوحّد الأشياء على تباينها ، لتنعم هادئةً في سرمديّة الكون [26] .

4-حلم الماغوط بالشوارع في بلادٍ بعيدة :

ومقابل إخفاق الماغوط المؤكَّد في استحضار طفولته إلى حيث هو ، كما شأن أيّ من البشر؛ لم يجد أمامه من سبيل بغية التخلّص من تشرّده المذكور ، سوى الحلم بتلك الطريق المعاكسة ؛ طريق انطلاقه نحو آفاق جديدة ؛ إذ إنه وهو يتسكّع في تلك الشوارع التي ربما بدَتْ له أشبه بمبغىً كبير ، في نور مصابيحها ، ورؤية نفسه عبْرها كالعواهر ؛ أظهر توقه العارم إلى سفينة بيضاء تُقلّه منها إلى بلادٍ بعيدة مكاناً ومجازاً ، يحيا بها غدَه الأبيض ، استيحاءً من البياض الذي أراده لسفينته ، غَده الدافئ المطمئنّ ، استيحاءً من دفء سفينته وسكينتها ، حين ستضمّه كما الأمّ بين نهديها ، نهديها المالحين ، بفعل امتداد الطرق البحريّة التي عبرتْ ، والتي ربما ستعبر به بعد حين . وبذلك يقول في نصّ من قصيدة " حزن في ضوء القمر" :

أما الآن

وأنا أتسكَّعُ تحت نور المصابيح

أنتقل كالعواهر من شارع إلى شارع

أشتهي جريمةً واسعة

وسفينةً بيضاء، تقلُّني بين نهديها المالحين ،

إلى بلادٍ بعيدة ، [27]

لكنه حتى لدى حلمه بتلك البلاد ؛ لم يستطع أن يتخلّى عن تصوّر شوارعها ، وكيفيّة تعايشه معها ، ذلك بفعل اعتياده حياة التشرّد ، وإيثارها على أيّ حياة مستقرّة ، أو بفعل إحساسه ، كما صرّح في مقالته " الوجبة الأولى والأخيرة"، بأنه إنسان غير مرغوب فيه ، أينما حلّ : القرية أو المدينة أو الوطن أو المنفى [28] ، وما كان يستتبع هذا دائماً من اتخاذه ضمن كلّ البقاع المذكورة ذلك المكان الهامشيّ غير المرموق " الشارع " المشاع وده دون سواه للمنبوذين . يتابع النصّ قائلاً :

حيث في كلِّ خطوةٍ حانةٌ وشجرةٌ خضراء ،

وفتاةٌ خِلاسية ،

تسهرُ وحيدة مع نهدها العطشان . [29]

لقد تصوّرَ تلك الشوارع دون أن يذكرها صراحةً ، أشبَهَ بشوارع مدينة فاضلة ، قد توافرَ في أرجائها ما أمكن من عناصر الحياة التي يبتغي . لقد تصوّر أنه عبْر كلّ خطوة فيها ، سيلقى من جانبٍ حانةً ، تغسله ربما مما تراكم لديه من متاعب ، ومن جانب آخر شجرة خضراء ، تفيّئه من قفار شوارعه السابقة وأمطارها السيّئة ، فيغدو وكأنه محميّ من جانبين : جانبٍ يغسل ، وجانبٍ يفيّئ ، أو وكأنه لايزال بين نهدَي تلك السفينة ؛ بين نهدَي الأمّ أو ذراعيها في عهد الطفولة . وهكذا إلى أن انتهى في هذا الحلم بخصوص الشوارع في البلاد المأمولة ، إلى تلك الفتاة الخِلاسيّة التي تسهر وحيدةً مع نهدها العطشان ، فلعل وحدتها هذه تلتقي ووحدته ، ويتكاملان في الحبّ الذي يحتاج إليه كلّ من الآخر . وحين أرادها خِلاسيّة ؛ أي هجينة من العرقين الأبيض والأسود ؛ فلكي يكون قد تَوحّدَ فيها – هي ذاتها – ما ذَكر قبلاً من ذينك اللونين البهيجين : بياض السفينة عبْر طريق سفره ، وخضرة الأشجار الظليلة عبْر خطواته ، خضرتها الداكنة ربما إلى حدّ الدنوّ من اللون الزنجيّ الأسود .

ولابد من الإشارة ضمن هذا السياق إلى محاولة إكماله صورة الأنثى التي يهفو إليها بصورة متميّزة في غربته الجديدة، غربته التي يحلم بها ؛ إذ إنه أضاف إلى المؤنّث الحقيقيّ " فتاة خِلاسيّة " ثلاث مؤنّثات مجازيّة : "خطوة – حانة – شجرة " ، إضافةً إلى صفةِ " خضراء " التي ألحَقَها بلفظة " شجرة " هذه .

ولعل الماغوط في هذه الانطلاقة من هجير المدينة وشوارعها إلى ذلك العالم المتخيَّل ؛ قد تَلاقى وشعراءَ مدرسة " آبّولو" الذين تبيّن لقادة عقاق ما تنطوي عليه عنوانات دواوين لهم من حلم بمثلِ هذه الآفاق البعيدة ، مثل " ما وراء الغمام " لإبراهيم ناجي ، " الملّاح التائه " لعلي محمود طه ، " أين المفرّ " لمحمود حسن إسماعيل[30].

5–تجربة محمد الماغوط مع غربته في شوارع بيروت :

ويتحقّقُ حلم الشاعر بسفره إلى بلاد أخرى ، فيرحل إلى بيروت ، بحثاً عن وجوده الجديد ، عن انطلاقته الجديدة. لكنه – كما سبق أن تخيّل – لم يتأخّر عن الركون إلى شوارعها ، ولا عن إبدائها أكثر رأفةً به من الشوارع التي سبقتْها. إنه هناك في بيروت لم يمكّنه توقه إلى التحرّر، حتى من ملازمة " مجلّة شعر " التي كان مفترَضاً أن تشكّل مآلاً لإبداعه ؛ إذ ذكرَ في حوار معه أنه كان يخرج من جلسات هذه المجلّة نافضاً كلّ ما قيل ، ليذهب إلى شوارعه الجديدة ومقهاه ومعاناته الشخصيّة [31]. لكن تجدر الإشارة إلى أنه في مقالته " نخبة مجلّة شعر" ؛ تبيَّنَ أن فراراته من المجلّة حينذاك ، لم تشكّل سوى تمهيد لانفصاله النهائيّ عنها ، بفعل ما تبصَّرَ به من المأساويّة في معركتها ، هي المنافِحة عن الشعر الحديث ، ضدّ الشعر العربيّ الأصيل ، وعدم تكافؤ هذه المعركة التي طالَ نفَسُها ، وبُعدُها عن الجدل الفكريّ ، ذلك لأسبابٍ أقلّها ، الحقد على كلّ ما يمتّ إلى البلاد وتاريخها المشرّف بِصِلَة[32] .

وقد عبّرَ الشاعر عن العلاقة الحميمة ما بينه وبين شوارع بيروت في نصّ من قصيدة " جنازة النسر " حين يقول :

الرصيفُ الحاملُ طفله الأشقر

يسأل عن وردةٍ أو أسير ،

عن سفينةٍ وغيمة من الوطن ... [33]

إذ أشار إلى حمل الرصيف إياه ناعتاً نفسه بالطفل الأشقر ، وما توحي هذه الصورة من حنان الأب على صغيره الجميل ، أو حنان الأم ، ولا سيما لدى إيراده لفظة " طفله " ، طفل الرصيف ، ثم أتبعَ ما سبق ذكره بإشارته في السطر التالي إلى تصوّر هذا الرصيف ، وقد تقمّصَ إحساس طفله بالحنين الذي ربما أخذ يتدفّق تجاه وطنه الذي غدا بعيداً ، كما شأن كلّ من يخوض تجربة الاغتراب ؛ إذ مثلما كان الشاعر قد سأل أباه أن يرسل إليه ما يمكن إرساله من عناصر طفولته إلى غربته الأولى في شوارع دمشق ؛ ها هو ذا قد تصوّرَ الرصيف الذي يحتضنه ، يسأل لأجله الوطن أن يرسل إليه سفينةً تحمل ما يمكن حمله ، سواء أكان بهيجاً ، مثل وردة تفوح بشذى الأرض النائية ، أَم باعثاً على الحزن والتعاطف ، مثل أسير يتمّ – هو الآخر – تغريبه ، وتحويله إلى رفيق للشاعر. أما الغيمة التي أرادها له الرصيف كذلك من وطنه عبْر طريقها العلْويّة ، مقابل السفينة عبْر طريقها البحريّة ؛ فلكي تُظلّله بحنانها هي الثانية ، وينعم به في الأرض ومن السماء ، ثم لكي تُنزِل عليه مطراً آخر سوى الذي تلقّاه والأطفال قبلاً ، مطر المنّ والسَّلوى : " وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وأَنْزَلنَا عَلَيْكُمُ ٱلمَنَّ وَالسَّلوى " [34] . وبذلك فإن الماغوط من خلال ما سبق تبيّنه ؛ مَثَّلَ – كما وجد راجي شاهين – الشاعر الذي يمتلك وحده دون سواه شجاعة أن يظلَّ طفلاً ، أو أن يعود إلى طفولته بين الحين والآخر ، وأن يتعامل مع العالم ، وفقاً لرؤاه الطفوليّة . أو إنه بالأحرى ، ظلَّ قادراً على الاحتفاظ ، وإن بالطفل المقهور الذي كانَهُ [35] .

ومن هذا النصّ يتبيّن – أيضاً – كيف أن الشاعر وضع الطفل الذي يقصد به نفسه – كما سبقت الإشارة – ما بين ثلاث مؤنَّثات مجازيّة من جانب : " وردة – سفينة – غيمة " ، وثلاثة مذكَّرات مجازيّة من جانب آخر : "الرصيف– أسير – الوطن " ، وما يمكن أن يشفّ عنه هذا من افتراضه وجودَه المتوازن في شوارع غربته الجديدة ما بين الأنوثة والذكورة ، ما بين الأمومة والأبوّة ، كما كانت حاله في طفولته ضمن بلدته . ولابد من الإشارة كذلك إلى تكامل كلّ من هذين الجانبين في معدوداته الثلاثة ، أو في هذا الثالوث الذي اكتسب قداسته في التراث الدينيّ والأسطوريّ [36] .

وبذلك فإن الفارق ما بين دمشق وبيروت لدى محمد الماغوط ؛ ربما تَماثلَ مع الفارق الذي تبيّنته " قادة عقاق " ما بين المدينة العربيّة والمدينة الغربيّة؛ العربيّة التي مثّلتْها دمشق بأخذها من الشاعر كل شيء ، دون أن تمنحه شيئاً ، والغربيّة التي تقاربتْ معها بيروت في تحضّرها وازدهارها، وفي منحها الشاعر شيئاً إذا كانت قد أخذتْ منه أشياء [37].

6–حلم الماغوط بالتغيير في واقع الشارع :

ومن المفعوليّة التي مَوضَعَ الشاعر نفسه ضمن إطارها ، بخصوص تعايشه مع الشارع ؛ وَضَّح من خلال نصّ من قصيدة " رجل على الرصيف " ، توقه إلى الانتقال إلى الفاعليّة ، ليتحوّل من متشرّد يشكو مراراً معاناته إلى متحفّز نحو تحريك حاله السلبيّة الساكنة ، وإنْ بصورة حالمة طوباويّة ؛ إذ ذكرتْ " فاطمة نظامي " بهذا الصدد : " لقد أفاقت عبقرية الماغوط على أهازيج الأحلام الطوباويّة ، والتعلّل بالسّرابات البرّاقة والاتكاء على أوهام خادعة ، قذفت بالإنسان العربي خارج أرصفة التاريخ ... " [38] :

أيها الشارع الذي أعرفه ثدياً ثدياً ، وغيمة غيمة

يا أشجار الأكاسيا البيضاء

ليتني مطرٌ ذهبي

يتساقط على كل رصيفٍ وقبضةِ سوط [39]

إنه بعدما كان ينتظر المطر من غيمة الوطن كما تبيّن ؛ صار يهفو إلى أن يكون هو مطراً ، مطراً ذهبيّاً ، بما تعني هذه الصفة من بريق الظاهر وجوهريّة الداخل ، فلعلّه يتساقط عطاءً وخيراً ، على الشارع الذي بات يعرفه ويألفه، كما لو أنه بيته ، شيء يخصّه ، يعرفه بكلّ ما تعدّدَ من عناصره وتنوّعَ ، بنسائه اللائي أشار إليهن من خلال عبارة " ثدياً ثدياً " ، بأشجاره ، بغيومه ، بأرصفته ، بجلاّديه ، يعرفه حين يناديه متقرّباً : " أيّها الشارع " ، وينادي فيه أشجار الأكاسيا " يا أشجار الأكاسيا البيضاء " ، يعرفه حين يعرّفه ب أل التي تحدّده بذاته دون سواه ، وحين لا يجعله في صيغة التنكير الذي إن كان مقصوداً " يا شارعُ " ، أو غير مقصود " يا شارعاً " ، لا ينمُّ على تلك الصلة الوثيقة الواضحة ما بين الشارع هذا والشاعر . إن الشاعر حين أراد أن يتساقط مطراً ؛ ربما كان يبتغي أن يحيا مثل تمّوز من بعد موت [40] ، كي يبعث في الشارع الخصب من بعد طول قفر ، شاملاً عناصر الخير والشرّ فيه ، فيجعل الأثداء تدرّ اللبن ، والغيوم تدرّ الماء ، وأشجار الأكاسيا التي تتوقّد بأزهارها البيضاء تفوح أكثر بشذاها ، ثم تدخل طور الإثمار، والأرصفة الإسفلتيّة تخضرُّ بالنبت والعشب ، والجلاّدين يُحِلّون قبضاتهم المُحكمَة عن سياطهم .

بل إنه ذهب في حلمه بالفاعليّة والتغيير حيال التشرّد إلى ما هو أبعد من ذلك في قصيدته " القتل " التي يقول فيها :

سنبني جنينة للأطفال

وبيوتاً نظيفة ، للمتسكعين وماسحي الأحذية . [41]

فبعدما اقتصر أمره على التمنّي من خلال الحرف المشبّه بالفعل " ليتني " ، تمنّيه أن يستحيل مطراً ذهبيّاً ، يسقط على الشارع بكلّ من فيه وما فيه ؛ انتقل إلى العزم والتصميم على الفعل ، على البناء " سنبني " ، إنما ليس في صيغة المفرد التي جاء وفقها التمنّي ، بل الجمع ، نظراً لما يحتاج إليه هذا العمل من التشارك مع الآخرين أمثاله ، وتوحيد ما لديهم من طاقات . إنه من خلال البناء ؛ دلّ على رغبته في نقض فضاء الشارع ، بعد طول ألفة له ، لأجل أنه آن الأوان أن يغادره والمتشرّدين نحو ما قد يتمّ تشييده لهم ، وينعموا بما كانوا يفتقدون من السكينة والاستقرار . وبذلك تكون قد تحقّقتْ ضمن قضيّة الشارع في هذا الديوان المراحل الثلاث التي حدّدها " لؤي آدم " بشأن حياة الشاعر بأكملها : التمرّد – التوتّر – التوازن [42] ؛ أو بعبارة أكثر تفصيلاً : التمرّد الذي حمله على الخروج إلى الشارع ، التوتّر الذي لازمه خلال وجوده في الشارع ، التوازن الذي أخذ يجنح إليه بحثاً عن الحياة العمرانيّة الآمنة بعيداً عن الشارع .

ويشمل البناء الذي صمّم عليه الشاعر جُنينة للأطفال ، يجدون فيها ملاعبهم الظليلة الآمنة بعد ملاعب الشارع المقفرة المنفلتة التي يمكن أن يقطعها المارّة ووسائل النقل في أيّة لحظة ، كما يشمل بيوتاً نظيفة للمتسكّعين وماسحي الأحذية ، يحتمون بجدرانها وسقوفها من عوامل الفصول المتنوّعة التي يتعرّضون لها مباشرةً هناك ، ذلك من رياح وغبار وأوحال وصقيع وشمس محرقة .

ويمكن أن نتبيّن من خلال النصّ ذاته ؛ كيف جعل الشاعر " جُنينة " في صيغة المفرد ، لأنها باتّساعها الذي ستكون عليه ، ستتمكّن من استيعاب كلّ الأطفال المتدفّقين إليها ، واحتضانهم كما لو أنها أمّ لهم ، ولا سيّما لدى ظهورها مؤنّثاً لا مذكّراً . بينما جعل " بيوتاً " في صيغة الجمع التي جاء وفقها المتسكّعون وماسحو الأحذية ، ذلك من أجل أن يُكرَّم كلٌّ منهم على حِدَة بعد تعرّضه للازدراء وهو يتسكّع أو يمسح الأحذية ، بمنحه بيتاً خاصّاً به ، لائقاً بإنسانيّته . كما يمكن أن نتبيّن كيف جعل الشاعر " جُنينة " في صيغة التصغير ، لكي تبدو في طفولتها ، في براءتها ونقائها ، ملائمة لأولئك الأطفال الذين سيقضون فيها ما طال من أوقاتهم .

الخاتمة :

شَكَّلَ الشارع في ديوان محمد الماغوط " حزن في ضوء القمر " ، بكلّ ما تفرّعَ منه من أزقّة وحارات وطرق، وما دخل في تركيبه من أرصفة وساحات ومواقف وجسور ، ذلك الفضاء المكانيّ الذي لجأ إليه لتفريغ ما تَكَوَّنَ لديه من معاناة ، بشأن كلّ مرحلة مرّ بها في حياته ، وما تناوبَ عليها من ظروف سلبيّة ، إنْ هي تنوّعتْ ما بين فقره المديد ، والاغتراب تلو الاغتراب ، وقضائه فترة من الاعتقال السياسيّ ؛ فإنها اجتمعتْ بأكملها في نقطة واحدة ، تمثّلتْ فيما فرضتْ عليه من ضغوط ، كانت كفيلة بأن تحمله على ذينك الخروج والتشرّد .

وقد كانت بدايته بهذا الصدد ، من طفولته التي قضاها في بلدته ، متسكّعاً عبْر أزقّتها وطرقاتها ، لاهياً لاعباً مغرماً ، أو واجداً فيها ملاذاً يُؤويه ، دون بيته المتواضع الذي ساده الشقاء . وبعد انتقاله إلى دمشق ؛ ما لبثَتْ معاناته أن تعقّدتْ ، لتشمل إلى جانب الفقر اغترابه عن تلك البلدة البسيطة ، إلى العاصمة التي لم يألف ضخامتها ، وتعرّضه ضمنها للاعتقال السياسيّ الذي خلّفَ في نفسه الخوف والأرق من أن يتكرّر عليه ثانيةً . وحين أراد أن يردّ على ما لقيه هناك بالسلوك السابق ذاته ، فيخرج من بيته إلى الشوارع ؛ ما لبث أن وجدها باتّساعها وتبعثرها وترامي أطرافها بفعل انتمائها إلى مدينة كبيرة ، متباينةً عن ذلك الفضاء الدافئ المطمئنّ الذي ارتاح له في بلدته . الأمر الذي جعل تسكّعه في مرحلته الجديدة هذه ، يتّخذ صورة مغايرة ، متمثّلة في لجوئه إليه وحيداً منبوذاً ضائعاً، وسط الأرجاء اللامتناهية ، دون أهله وأقرانه الذين كانوا قريبين منه ، مهما نأى عنهم في الدروب . وبناءً على هذه المعاناة التي

أضافتها شوارع دمشق إلى معاناة عيشه ، بدلاً من أن تكون ملجأً يركن إليه ؛ وجد نفسه أمام أحد سبيلين ، ناشداً من خلالهما الخلاص : تحدَّد أحدهما في رغبته بالعودة إلى أزقّة الطفولة التي تبيَّن له من بعيد كم كانت معاناته فيها بسيطة ساذجة . وتَحدَّد الآخر في حلمه بالسفر إلى بلاد بعيدة ، لا من أجل أن يستقرّ في واحد من مساكنها ، إنما من أجل أن يتعايش مع شوارعها – هي الأخرى – التي ابتغاها مثاليّة فردوسيّة ، تعمّها الأشجار والخمر والنساء .

لكن حين تَحقَّقَ للشاعر الحلم بالسفر ، السفر إلى بيروت ، واستعاد قدراً من التوازن في شوارعها ؛ ما لبث أن تَدفَّق لديه تلقائيّاً الشعور البديهيّ بالحنين إلى الوطن ، وتمنّيه أن يتلقّى أيّ شيء منه ، يستعيد به أجواءه.

وهكذا إلى أن خلص الشاعر في النهاية إلى رغبته في تغيير واقع الشارع ، وعدم الإبقاء على صورته السلبيّة السكونيّة ، إما من خلال حلمه بإحيائه ، بتدفّقه عليه مطراً ذهبيّاً ، وإما من خلال حلمه بنقضه ، نقض الشارع ، بالبناء والإعمار ، بغية لملمة المتشرّدين من أرجائه ، وإدخالهم مساكن توافرتْ فيها شروط الحياة الإنسانيّة الملائمة .

الاستنتاجات والتوصيات:

ومما سبق يمكن أن نستخلص النتائج الآتية :

إن طريق المعاناة التي مرّ بها الماغوط بكلّ ما تَعدَّد من مظاهرها ، وعبْر ما تَعدَّد من مراحل حياته ، شكّلتْ في داخله قوّة ضاغطة ، حملته على التمرّد ، والخروج إلى الشارع ، بغية التشرّد عبْر آفاقه ، والتحرّر من تلك التي كان بالإمكان أن تشكّل قيوداً له .

خروجه إلى الشارع في طفولته ، تعبيراً عن معاناته من شظف العيش الذي كان يسود بيته .

خروجه إلى الشوارع في دمشق ، تعبيراً عن معاناته الغربة في هذه المدينة الكبيرة ، بعيداً عن بلدته المتواضعة . مع أنه لدى تسكّعه في هذه الشوارع الجديدة ، انضافتْ إليه معاناة أخرى ، تمثّلتْ فيما انتابه فيها من الإحساس بالوحدة ونكران الآخرين .

البحث عن الخلاص من غربته ، إما من خلال تعبيره عن الحنين إلى شوارع الطفولة التي كان ينعم فيها بالأمان ضمن بلدته وبجوار أهله ، وإما من خلال الحلم بالسفر إلى بلاد بعيدة ، دون التخلّي عن استحضار شوارعها التي تصوّرَها أشبه بشوارع مدينة فاضلة .

تحقّقُ حلمه بالسفر إلى بيروت ، وبعثوره في شوارعها على بعضٍ مما كان يتوق إليه . مع عدم انتفاء شعوره بالحنين الذي أخذ يتصاعد لديه هناك تجاه الوطن .

الحلم بالثورة على الشارع من خلال البناء والإعمار ، بغية جمع المتشرّدين ، وإدخالهم مساكن ينعمون فيها بالاستقرار .

توثيقات البحث:

1–الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ، 1998 ، ص33 .

2–يُنظَر الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر" ، مقدّمة الديوان ، ص 7 .

3–الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 11 .

4–يُنظَر آدم ، لؤي . محمد الماغوط – وطن في وطن – دراسة تجريبيّة " تحليليّة – تركيبيّة " ، المدى ، دمشق ، طبعة أولى ، 2001 ، ص 95 .

5–يُنظَر الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، مقدّمة الديوان ، ص 10 .

6-يُنظَر آدم ، لؤي . محمد الماغوط – وطن في وطن ، ص 137-140 .

7-يُنظَر شاهين ، راجي . الرؤيا في شعر محمد الماغوط ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة، دمشق ،2013 ، ص 5 .

8-يُنظَر المرجع نفسه . ص 36 .

9-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 32 .

10-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 32 .

11-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – "حزن في ضوء القمر " ، ص 32 .

12-يُنظَر آدم ، لؤي . محمد الماغوط – وطن في وطن ، ص 35- 36 .

13-يُنظَر عقاق ، قادة . دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر – دراسة في إشكاليّة التلقّي الجماليّ للمكان ، اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق ، 2001 ، ص 159.

14-يُنظَر الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، مقدّمة الديوان ، ص 7 .

15-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 42 .

16-يُنظَر شاهين ، راجي . الرؤيا في شعر محمد الماغوط ، ص 39 .

17-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 27 .

18-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 12 .

19-القرآن الكريم . سورة الشعراء ، الآية 173 .

20-القرآن الكريم . سورة آل عمران ، الآية 26 .

21-يُنظَر عبّاس ، إحسان . اتجاهات الشعر العربيّ المعاصر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، طبعة أولى ، 1978 ، ص 35 – 37 .

22-يُنظَر الماغوط ، محمد . سيّاف الزهور ، المدى ، دمشق ، طبعة ثالثة ، 2009 ، ص 25 .

23-يُنظَر د. مونسي ، حبيب . فلسفة المكان في الشعر العربيّ – قراءة موضوعاتيّة جماليّة ، اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق ، 2001 ، ص 33- 35 .

24-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 24 .

25-المصدر نفسه . ص 24 .

26-يُنظَر عقاق ، قادة . دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر ، ص 122 .

27-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 14- 15 .

28-يُنظَر الماغوط ، محمد . سأخون وطني – هذيان في الرعب والحريّة ، المدى ، طبعة خامسة ، 2006 ، ص 410 .

29-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 15 .

30-يُنظَر عقاق ، قادة . دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر ، ص 130 – 131 .

31-يُنظَر صويلح ، خليل . محمد الماغوط – سنونو الضجر ، إصدرات الأمانة العامّة لاحتفاليّة دمشق عاصمة الثقافة العربيّة ، 2008 ، ص 62 .

32-يُنظَر الخطيب ، محمد كامل . تحريراً وتقديماً ، نظريّة الشعر ، 5 ، مرحلة مجلّة شعر ، القسم الأول ، المقالات، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1996 ، مقال محمد الماغوط " نخبة مجلّة شعر " ، ص 327 .

33-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 16 .

34-القرآن الكريم . سورة البقرة ، الآية 57 .

35-يُنظَر شاهين ، راجي . الرؤيا في شعر محمد الماغوط ، ص 34 .

36-يُنظَر البعلبكيّ ، منير . موسوعة المورد ، المجلّد العاشر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى ، 1983، ص 27 .

37-يُنظَر عقاق ، قادة . دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر ، ص 169 .

38-يُنظَر الماغوط ، محمد . شرق عدن غرب الله ، المدى ، دمشق ، طبعة ثانية ، 2007 ، المقدّمة ، ص 5-6 .

39-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 30-31 .

40-يُنظَر السوّاح ، فراس . لغز عشتار – الألوهة المؤنّثة وأصل الدين والأسطورة ، سومر للدراسات والنشر والتوزيع ، قبرص ، نيقوسيا ، طبعة أولى ، 1985 ، ص 297 – 299 .

41-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – " حزن في ضوء القمر " ، ص 66 .

42-يُنظَر آدم ، لؤي . محمد الماغوط – وطن في وطن ، ص 429 .

مصادر البحث ومراجعه :

1-القرآن الكريم .

2-آدم ، لؤي . محمد الماغوط – وطن في وطن – دراسة تجريبيّة " تحليليّة – تركيبيّة " ، المدى ، دمشق ، طبعة أولى ،2001 .

3-البعلبكيّ ، منير . موسوعة المورد ، المجلّد العاشر ، دار العلم للملايين ، بيروت ، طبعة أولى ، 1983 .

4-الخطيب ، محمد كامل . تحريراً وتقديماً ، نظريّة الشعر ، 5 ، مرحلة مجلّة شعر ، القسم الأول ، المقالات ، وزارة الثقافة ، دمشق ، 1996 .

5-السوّاح ، فراس . لغز عشتار – الألوهة المؤنّثة وأصل الدين والأسطورة ، سومر للدراسات والنشر والتوزيع ، قبرص، نيقوسيا ، طبعة أولى ، 1985 .

6-شاهين ، راجي . الرؤيا في شعر محمد الماغوط ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق،2013 .

7-صويلح ، خليل . محمد الماغوط – سنونو الضجر ، إصدارات الأمانة العامّة لاحتفاليّة دمشق عاصمة الثقافة العربيّة ، 2008 .

8-عبّاس ، إحسان . اتجاهات الشعر العربيّ المعاصر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، طبعة أولى ، 1978 .

9-عقاق ، قادة . دلالة المدينة في الخطاب الشعريّ العربيّ المعاصر – دراسة في إشكاليّة التلقّي الجماليّ للمكان ، اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق ،2001 .

10-الماغوط ، محمد . أعمال محمد الماغوط – "حزن في ضوء القمر " ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، طبعة أولى ، 1998 .
11-الماغوط ، محمد . سأخون وطني – هذيان في الرعب والحريّة ، المدى ، طبعة خامسة ، 2006 .
12-الماغوط ، محمد . سيّاف الزهور ، المدى ، دمشق ، طبعة ثالثة ، 2009 .
13-الماغوط ، محمد . شرق عدن غرب الله ، المدى ، دمشق ، طبعة ثانية ، 2007 .
14-د. مونسي ، حبيب . فلسفة المكان في الشعر العربيّ – قراءة موضوعاتيّة جماليّة ، اتّحاد الكتّاب العرب ، دمشق، 2001 .